تواصل (المدى) نشر هذا الكتاب الذي يقدم صورة عن ذكريات وانطباعات وآراء بول بريمر حول فترة عمله في العراق وتهدف (المدى) عبر ترجمتها ونشرها الكتاب إلى إتاحة الفرصة لقرائها للاطلاع ، كما تتيح المجال للباحثين والمحللين وسواهم من المعنيين لمراجعة مادة الكتاب فكرياً ونقدياً.. وبهذا تؤكد (المدى) ان جميع الآراء والمعلومات التي يقدمها بريمر هنا هي تعبير عن وجهة نظره الشخصية التي لا تلتقي مع وجهة نظر (المدى) التي واكبت فترة حكم بريمر وما بعدها بالنقد الصريح المعروف عن الجريدة وعن سياستها الواضحة في هذا المجال.

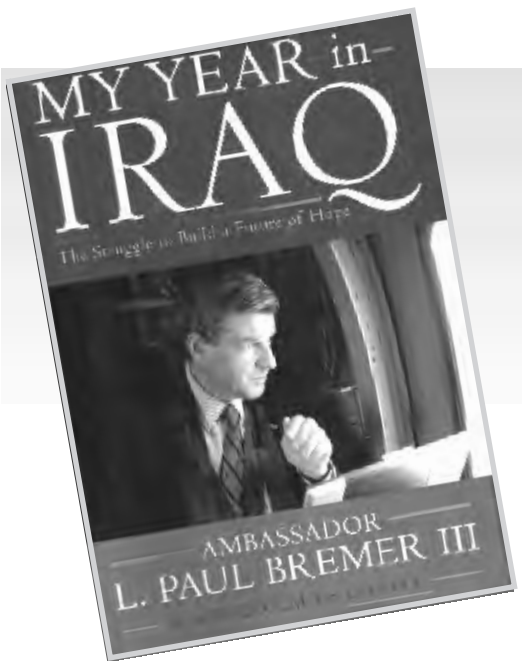

كتاب بول بريمر الصادر حديثاً حول تجربة عمله في العراق

سنتي في العراق

الصراع لبناء مستقبل من أمل

تأليف/ بول بريمر
ترجمة /د. عابد اسماعيل

(الحلقة الثانية و الثلاثون)

كان موظفا مكتب الأمم المتحدة بينان سيفان وراميرو دا سيلفا ، اللذان كنتُ قابلتهما منذ فترة وجيزة فقط ، قد خرجا ببعض الكدمات والجروح ، وبدا أنهما ما زالا في حالة الصدمة. كانا أيضاً قد سمعا أن دي ميلو لا يزال عالقاً تحت السقف المنهار ، لكنه نجا ، وتحدّث إلى عمال الإنقاذ. وصل الجنرال سانشيز ، وأقام نقطة قيادة.

بعد ربع ساعة، ناداني الجنرال سانشيز من بين الحشد، وأخذني إلى مهندس شاب، "مختص بالألغام"، من القوات الأمريكية، تغطي ثيابه الأتربة. كان وجه الرجل موشوماً بالعاطفة.
"سيدي،" قال الجندي الشاب، "إن السيد دي ميلو عالق رأساً على عقب، في مساحة ضيقة جداً، تحت قطع ضخمة من الإسمنت. لا يستطيع أن يتحرك، لكنه ما زال لم يفقد الوعي، وقد تكلّم قليلاً حين عثرنا عليه."
كانت الصورة مرعبة.
"لقد عملنا ما في وسعنا لإخراجه، سيدي السفير،" تابع قائلاً. "لكننا لم نستطع إخراجه، سيدي. شظايا الأحجار كبيرة جداً."
لا بد أن سيرجيو كان يعلم بأنّه يواجه قدره، وكانت كلماته الأخيرة "لا تدعوهم يُخرجون الأممَ المتحدة!"
شكرتُ الجندي على جهوده الشجاعة، وربتُ على كتفه، واستدرتُ، منكفئاً إلى حزني الخاص. شعرتُ بالاشمئزاز. كان سيرجيو شخصاً طيباً وصديقاً جيداً. وقد أثبتَ أنه مناصر قوي لعمل التحالف هنا. لابد أنّ خسارته ستترك أثراً سلبياً على مهمة الأمم المتحدة في العراق. لكنني لم أستطع أن أخبر أحداً في موقع الانفجار بأن سيرجيو قد مات، لأن ثمة صحفيين في كل أرجاء المكان، وكانت الأمم المتحدة تريد أن تُعلمَ عائلته أولاً.
بعدما عدتُ إلى مكتبي، أجريتُ حديثاً آخر مع الرئيس. وأطلعته على تفاصيل الحادث وعلى مقتل سيرجيو. طلب مني أن أطمئن العراقيين بأننا لن ننسحب من العراق تحت ضربات الإرهابيين. لكنه أيضاً طلب مني أن أحث مجلس الحكم "على التحرك" والبدء باتخاذ قرارات صعبة.
في الصباح التالي، قمتُ باستدعاء جميع مستشاري الأمن والاستخبارات في سلطة التحالف المؤقتة.
ذكّرتُ المجموعة بأننا كنا قد تحدّثنا عن مشاكلنا المتعلّقة بالمعلومات الاستخبارية، مرات عديدة، واستجابة لطلبي بتنسيق أفضل، كانوا قد أوصوا بإنشاء "خلية دمج" تسخّر جميع موارد الحكومة ضد الإرهابيين، وجعلها تصبّ في مكان واحد.
"أريدها أن تقوم الآن، ومن دون تأخير،" قلتُ. "لننس حدود الوكالة وقنوات الاتصال. جمّعوا طاقاتكم، نحن في أزمة هنا. لقد وصل الإرهابيون بطريقة خطيرة جداً، وعلينا أن نتعامل مع الوضع بجدية عالية."
وقلتُ أيضاً أنه يتوجّب علينا أن نتابع في مسألة تحديد حاجتنا الملحة إلى كوادر إضافية، ومعدات تكنولوجية، التي لم تكن واشنطن قد استجابت لها. يتوجب علينا أيضاً حماية مقرّنا والعديد من البعثات الأجنبية، هذا إذا لم نذكر مجلس الحكم العراقي.
وإلى هناك اتجهتُ. كان أعضاء المجلس يصدرون بيانات تعبر عن الحزن والغضب تجاه حادثة التفجير.
تحدث الجادرجي عن "الجرائم الفظيعة للإرهابيين."
ونوّه عبد العزيز الحكيم بأنّ "الهجوم يهدف إلى حرمان العراقيين من صناعة قدرهم."
وتركتهم يستمرّون على هذا المنوال، لمدة ساعة كاملة. "انظروا،" قلتُ، متجاوزاً الكياسة التقليدية. "تحدثتُ إلى الرئيس البارحة، وطلب مني أن أنقل رسالتين إليكم. الأولى هي أن أمريكا لن تحيد عن التزاماتها هنا بسبب الإرهابيين، والثانية هي أنه حان الوقت لكي يبدأ مجلس الحكم بالتحرك." قلتُ إنني سأتحدث إلى الرئيس مرة أخرى، بعد الظهر، وأنقل إليه ما قرر مجلس الحكم القيام به. كان أمامهم اثنتا عشرة إلى أربع وعشرين ساعة حاسمة. "عليكم أن تظهروا للعراقيين بأنكم قادرون على الحكم والتصرف. إن وقت الكلام قد انتهى."
واقترحتُ ست خطوات يمكنهم اتخاذها مباشرة: بيان قوي اللهجة، يدين التفجير، ودعوة جميع العراقيين إلى الانضمام ومساعدة قوات أمنهم، وخاصة كتائب الدفاع المدني، المشكلة حديثاً (سُميت لاحقاً الحرس الوطني العراقي)، والطلب من الدول الصديقة، بما في ذلك تركيا، الانضمام إلى قوات التحالف، وأخيراً وضع استراتيجية تواصل إعلامي تُظهر للشعب العراقي بأن مجلس الحكم يشجع المسار السياسي إلى الأمام، وبأنهم يحكمون الآن، وليس لاحقاً.
وأنهيتُ حديثي بالإيحاء بأن يوافقوا على مجموعة من المقترحات المعروضة أمامهم منذ أسابيع، بما في ذلك المساعدة في إعادة دمج الجنود السابقين في المجتمع العراقي. كما أوصيتُ بتحضير مسودة بيان عن التفجير الذي استهدف مقر الأمم المتحدة، وأن يتمّ توزيعه بعد الاجتماع مباشرة إلى رجال الصحافة المنتظرين في الخارج.
أصيب أعضاء المجلس بالصدمة، وخلدوا للصمت. وبالتدريج بدأت فكرة المسارعة إلى القيام بفعل ما تدغدغ عقولهم. هكذا شكلوا بهدوء مجموعة صغيرة لإعداد البيان.
في اليوم التالي، بعثتُ بتفصيل تقييمي عن مجلس الحكم إلى واشنطن، يتطرّقُ إلى نشاطات الشهر الأول: " ...مازال مجلس الحكم بطيئاً في اتخاذ القرارات حيال باقة من القضايا الخطيرة المطروحة أمامه، مع غياب المبادرات في علاقته بسلطة التحالف المؤقتة." قلتُ ملخصاً الحالة.
ربما تستطيع الصدمةُ أن تحثّهم على عمل بنّاء، قلتُ في نفسي.
في ظهيرة ذلك اليوم، انضممتُ إلى مؤتمر لاسلكي لمجلس الأمن القومي، عبر الفيديو. ناقشنا استراتيجية الدعم المالي الإضافي. كان كل من رامسفيلد، وولفويتز، ورايس قد مهّدوا الطريق لهذا الأمر. قال الرئيس إنه ليست لديه "مشكلة" مع طلب الدعم الإضافي لسلطة التحالف المؤقتة البالغة عشرين مليار دولار. أخيراً كانت هناك بعض الأخبار الجيدة.
ثمّ اتجهنا إلى مناقشة التفجير لمبنى الأمم المتحدة.
"أريد أن أكون واضحاً في هذا المجال،" قال الرئيس بوش. "علينا أن نكون أقوياء في محاربة الإرهاب هنا والآن."
وجاء دوري للحديث عن الحالة القائمة على الأرض في العراق، وكنتُ صريحاً. "نحتاج إلى استخبارات أفضل عن النشاطات الإرهابية في العراق،" قلتُ. "يجب أن لا نضع موارد أقلّ في محاربة الإرهاب عن تلك التي نسخّرها في استخبارات البحث عن أسلحة الدمار الشامل."
كان بعض الجالسين حول الطاولة قد سمع هذا الكلام سابقاً، والبعض الآخر كان يسمعه للمرّة الأولى.
"سيدي الرئيس،" ختمتُ، "أقترح أن تلقي خطاباً شاملاً إلى الأمة، بعد مناسبة يوم العمل، تبيّن فيه رؤيتك للعراق."
أومأ برأسه، لكنّه لم يعلن التزاماً ما.
بعد ساعات قليلة، اتصلت رايس لتسأل كيف يمكنها تقديم المساعدة. "أنا وكولن مقتنعان بأن العراق قد أصبح مسرحاً حاسماً للحرب على الإرهاب، وإذا انتصرنا في العراق، فإن الإرهاب الإسلامي سوف يُهزم."
كانت فيرمونت باردة، خضراء، وهادئة في أواخر آب. في اليوم الذي أعقب وصولي، صباح الجمعة، ٢٩ آب، كانت لدي مجموعة اتصالات يجب أن أجريها مع بغداد، والكثير من الرسائل الإلكترونية التي يجب أن أجيب عنها. ولكن هذه كانت بمثابة مهمات ممتعة لأنه لم يكن يوجد تشويش على خطوط الهاتف أو غبار على لوحة مفاتيح الكمبيوتر.
وكانت تحيط بي عائلتي. وتشعر فرانسي بالتحسّن، هنا في الريف. كان كلبنا، ميني، يصنع دوائر أثناء ركضه حول حفيدتنا، صوفيا، التي كانت تتكلم الآن، ولكن بلغة لم يكن سهلاً التعرف عليها.
أجريتُ مراجعة سريعة لبعض أرقام الميزانية، أثناء الفطور، واتصل كلاي من بغداد. كانت الأخبار سيئة جداً.
"انفجار كبير آخر لسيارة ملغومة، يا جري،" قال. "هذه المرة في النجف. ثمة مئة شخص على الأقل لاقوا حتفهم."
وكما هي العادة، كانت الأخبار الأولية غامضة ومتناقضة، ولكن لم يكن يوجد شكّ بأن هجوماً كبيراً قد وقع. وقد اتضح أن أحداً من القتلى كان شيخاً دينياً بارزاً، وعضواً في إحدى المرجعيات الدينية، هو محمد باقر الحكيم، الشقيق الأكبر لعبد العزيز الحكيم، العضو البارز في مجلس الحكم. أُصيب البلد بصدمة كبيرة جراء هذا الاعتداء الإرهابي في قلب المناطق الشيعية.
خلال دقائق، بدأت الهواتف ترنّ في مزرعتنا. وعلى مدى ساعات، انشغلتُ بمكالمات من بغداد، والبنتاغون، والبيت الأبيض. سرعان ما انقشعت الأمور.
"يجب أن أعود حالاً،" أخبرتُ فرانسي.
"متى، يا جري؟ أنت وصلت منذ وقت قصير. لقد خسرت الكثير من وزنك. عليك أن ترتاح."
"اليوم "...، قلتُ، وصوتي يرتجف.
وضعت فرانسي ذراعيها حولي.
"جري، حبيبي ...ربما ستهدأ الأمور وتعود أدراجك." وحاولنا جميعاً أن نطمئن بعضنا بعضاً بأن ذلك ممكن. ولكن لم يكن أحدٌ منا يصدّق ذلك.
فجأة ظهرت سيارة عسكرية عند مدخل المزرعة، في داخلها رجال الأمن، جاءت لأخذي إلى مطار هارتفورد، حيث تنتظرني طائرة عسكرية من طراز غولفستريم، سوف تقلني في رحلة طويلة إلى بغداد.
ما إن غادرت السيارة، نظرتُ إلى الخلف، ورأيتُ جميع من أُحب، يقفون على الشرفة الأمامية، يبكون.

الشهيد محمد باقر الحكيم

يتبع